



جوانب من إسهامات الملك عبدالعزيز آل سعود في التطور الحضاري لمكة المكرمة خلال بداية القرن العشرين

■ جعل من بلد مضطرب أهل بالعصابات والترويع.. الأكثر أمناً في العالم



صورة تاريخية عامة لمكة المكرمة



الملك المؤسس عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

الملك المؤسس..
وبناء الدولة المتين

الحلقة 1 من 5



د. نواف عبدالعزيز الجمعة
استاذ مشارك - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي
كلية التربية الأساسية - الكويت

هذا، ويؤكد الرحالة المغاربة استمرار موجة الاضطراب الأمني في هذه المدة، فيها هو العلوي الشاكري يذكر بنوع من التفصيل عن كيفية تعرض قافلة الحجاج التي كان هو من ضمنها إلى الاعتداء⁽¹⁴⁾، كما أن الطيب بن كيران قبله، أثار موضوع قطاع الطرق في البنوع بالحجاز⁽¹⁷⁾.

يبدا أن سلطة الدولة العثمانية لم ترتكز من قبل ولا ترتكز في هذه الفترة إلا على القوة المسلحة ولا تتبدد إلا في النقاط التي ترابط فيها القوات المسلحة وهذا يعني أن الأتراك لا يملكون غير المدن أو الطرق المهمة التي تحميها المخافر المتعددة ولكن سلطتهم في هذه النقاط لا تحظى بالمحكمة والهيبة، الأمر الذي تبيته الأحداث التي ذكرناها آنفاً. من جانب آخر لا بد من التنويه إلى أنه في غضون أربعة قرون من امتلاك الحجاز لم يبق الأتراك أي صلوات بينهم وبين الأعراب ولم يكن لهم عليهم أي تأثير ثقافي، فالعلاقات بين الطرفين كانت تنقسم في أغلب الأحيان بالتريبص الخفي والحذر الشديد.

وتكمن أهمية هذه الحوادث والإشارات في الوقوف على ظاهرة ميزت واقع الحجاز وتمثلت في ممارسات الأعراب وتجاوزاتهم في جوار الحجاج، بحيث يمكننا الجزم بأن هذه الظاهرة مورست على حجاج بيت الله منذ قرون وقيل حجاج القرن التاسع عشر، إذ يكفي الرجوع إلى رحالة الغرب الإسلامي في تاريخ العصر الوسيط المتأخر من ذلك، فعلى سبيل المثال لا الحصر: حج الرحالة ابن جبير سنة 1183م، ودون شهادات عكست غضبه الشديد إزاء تلك الممارسات، إلى حد تأييده لرأي فقهاء الأندلس في جوار إسقاط هذه الفريضة عن المسلمين «لهذا السبب وبما يصنع للحجاج مما لا يرضيه الله عزوجل»⁽¹⁸⁾، ويبدو أن ويعد قرون من استنكار ابن جبير، رصد العبدري الذي حج سنة 1289م الظاهرة نفسها فأورد في معرض حديثه عنها حادثة شهدها وعانها⁽¹⁹⁾، أما الرحالة ابن بطوطة، فقد أشار إلى حالات تفيد الضرر الذي ألحق بالحجاج من فتن واضطرابات في مكة وغيرها من بلدان المشرق العربي⁽²⁰⁾، ويبدو أن الشعور بانعدام الأمن على الطرقات ظل مسيطراً على مخيلة (الحجاج الوافدين) سواء في تاريخ العصر الوسيط أو الحديث المعاصر.

■ **واصلت الدولة العثمانية طريقها نحو الضعف والتفكك في القرن التاسع عشر وقد نجم عن ذلك أن فقد المركز سيطرته على الأقاليم**

■ **أعطى التغيير المستمر للولاة العثمانيين إلى جانب عدم القدرة على السيطرة على مجريات الأمور المجال لخروج الأشراف على الأوامر السلطانية**

في الأزمنة الغابرة لدائهم: «انتظر قليلاً سأنهض إلى بلاد الفرس لأجل نهب المال ودفع ديني» وكذلك البدو فكتيرة هي العمليات المتواصلة للاعتداء على قوافل الحج في تلك الفترة وكل تهاون في مراقبة الطرق لا يؤدي إلى اختلال الأمن وتعرض القوافل للنهب والسلب فحسب، بل إن المدن تصبح عذبة مهددة بهجمات قطاع الطرق والأطراف المناهضة للدول بين الحين والآخر. وعلى العموم قطع الطرق يعني وجود أزمة بطالة، أو شح موارد بالنسبة لأولئك النفر من قطاع الطرق، وربما كان يعني أيضاً عملاً سياسياً حيث تقوم الجماعات برفض اتاوات على القوافل لتسمح بمرورها وتضمن سلامة أموالها ونفوس المشركين فيها⁽¹⁴⁾، وهذا ما فعله أكثر القبائل التي تمر القوافل بأراضيها. يذكر الضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين في كتابه الرحلة السرية: «أن أعمال السلب والنهب والقتل ضد الغرياء ظاهرة عادية تماماً، وهم كل سنة يقتلون عشرات الحجاج لأجل النهب، والحصول على الأموال بهذه الطريقة»⁽¹⁶⁾.

ويذكر الضابط الروسي بنوع من التفصيل عن تعرض قافلة في الطريق بين مكة والطائف إلى الاعتداء من قبل الأعراب حتى لقي ضابطان و16 جندياً مصرعهم ثم أوضح لنا أن الأحداث من هذا النوع لا تثير دهشة أحد ولا تستتبع أي تحقيقات وعقوبات، وأنه في السنتين الأخيرتين تفاقمت كثيراً أعمال النهب والسلب والاعتصاب من كل شاكلة وطراز، على حد قوله⁽¹⁶⁾، وقد أبدى الضابط الروسي نفسه استهجاناً من تكرار الاعتداءات السافرة لركب الحجاج وذلك لما نقل إلى مسامحة من أخبار عن خط السفرة وعمليات النهب والاعتداء على القوافل سواء في الطريق بين مكة وجدة أو في الطريق بين المذاهب، بيروت، طت، 1993، ص 115.

تم تقسيم عناصر هذا البحث إلى ثلاث نقاط رئيسية: ● قراءة في أوضاع مكة المكرمة قبيل ضم بلاد الحجاز 1343هـ/1924م. ● صور من إسهامات الملك في مكة المكرمة وأثرها على الصعيد الشعبي. ● خلاصات واستنتاجات. 1- قراءة في أوضاع مكة المكرمة قبيل ضم بلاد الحجاز (1343هـ/1924م):

1- انقلاب الأحوال: واصلت الدولة العثمانية طريقها نحو الضعف والتفكك في القرن التاسع عشر. وقد نجم عن ذلك أن فقد المركز سيطرته على الأقاليم، الأمر الذي نجم عنه لامركزية في الحكم، في الوقت نفسه تطورت الأقاليم الكبرى في الدولة وتحولت إلى ممالك مستقلة. في ظل هذه الظروف نشط حكام مكة المكرمة بصورة أكثر من ذي قبل وانفرد هذا القرن بالصراع بين ظهراني الأشراف أنفسهم⁽²⁾، ويبدو أن ارتباط حكام مكة ومستقبلها بشخص واحد (الشريف) مثل سبيل الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة، لاسيما في الورثة الشرعية، فالوضع الداخلي في الحجاز بنى بالانفجار في هذه المدة، ولابد من الإشارة هنا إلى الانشقاق الذي لحق بيت الإمارة الشريفة في مكة، وهو انشقاق سجليته وثيقة (خاصة الكلام) حيث بلغ ذروته بين الشريفين محمد بن عون (1856-1858م)، وعبدالمطلب (1851-1856 و1879-1881م)⁽³⁾.

غير أن ظهور بعض الحوادث أدى إلى وجود انعكاسات في المجال السياسي الحجازي - ففتح قناة السويس في سنة 1869م اعتبر من قبل أهل الحجاز كارثة حلت بهم، فالرواية القديمة⁽⁴⁾ تفيد بأن فتح مثل هذه القناة سوف يسهل على النصارى السيطرة على بلاد الحجاز⁽⁵⁾، لذا أصبح العثمانيون أكثر سرعة وفاعلية في التدخل في شؤون الحياة السياسية في الحجاز خصوصاً بعد أن تحول البحر الأحمر من بحر إقليمي إلى بحر دولي تتصارع فيه القوى الاستعمارية وتزداد فيه المطامح التوسعية.

هذا، وقد أعطى التغيير المستمر للولاة العثمانيين إلى جانب عدم القدرة على السيطرة على مجريات الأمور، المجال لخروج الأشراف على

الأمور السلطانية وأشير هنا إلى العلاقة بين الوالي عثمان نوري باشا والشريف عون الرقيق في أواخر القرن التاسع عشر⁽⁶⁾. بقي الصراع مستمراً بين حكام مكة (الأشراف) وحماة الديار المقدسة (العثمانيين) غير أن أهل مكة يقفون في اللحظات الأخيرة مع الأشراف لأنهم يخشون سيدنا الشريف أكثر مما يخشون الوالي لأن الشريف في نظرهم هو سيد الحجاز بينما «أفندينا» - في كل يوم أفندي جديد - لا يمكن معرفته إلا من خلال الطربوش، إضافة إلى تمخيله لرغبات الأتراك بفرص السيادة المركزية⁽⁷⁾.

مهما يكن من أمر فإن لسان حال أهل مكة يقول: سيدنا الشريف هو رئيس كل الأشراف، وهو سيد الحجاز ما لم يعارضه أحد أقربائه أو يثور عليه، وبجانب الأشراف هناك نقابة للسادة الحسينيين الذين يتمتعون على الصعيد الديني باحترام كبير، وهؤلاء لم يطعموا في الحصول على دور سياسي، كذلك الأمر بالنسبة لبني شعبة الأقل عدداً، وقد بقيت لهم سدة البيت منذ أيام الرسول ﷺ، ثم هناك الجاليات الجاورة التي وفدت من مختلف بقاع العالم الإسلامي ولهذه الجاليات زعمائها الذين يتولون تصريف أمورهم، ثم هناك الأرباض المختلفة للمدينة حيث يشكل كل ريش وحدة عضوية تحت زعامة أحد الشيوخ⁽⁸⁾، والمستفاد من كل ذلك أن هذه الفئات المجتمعية والتي تعود إلى العصر الوسيط كانت تتبع للزعامة ممثلة بالأشراف، فمصالح المكين مع مصالح الأشراف، لذا فإن التطور التاريخي لظروف مكة المكرمة قد تم تفسيره من قبل أهل مكة بأن السلطة للخليفة في إسطنبول تمارس من خلال الشريف.

1- اختلال الأمن:

الصورة المشرقة والجذابة للحجاز اعترتها القنامة. إذ أدى انعدام الأمن في الحجاز خلال بعض الفترات، وتعرض وفود

تقد من الله سبحانه وتعالى على عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود⁽¹⁾ وأكرمه بمسؤوليته عن البيت الحرام في هذه الفترة التاريخية. وظهر، رحمه الله، انطلاقاً من اقتدائه بهدي الرسول ﷺ، وبسته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عليهم، وجريا على تنافس خلفاء وأمرأ وسلطين ومولوك المسلمين عبر التاريخ على العناية بمدينة مكة المكرمة. فقد أبدى اهتماماً يستوعب الانتباه ببيت الله الحرام. بغية الأجر والثوبة متمثلاً لأمه تعالى (وإذ يوانا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للناظرين والناظرين والركع السجود) (سورة الحج، آية 26).

ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير يدخل موضوع هذا البحث الذي سيتم التركيز فيه على الإسهامات والعطاءات التي تتعلق أساساً بالمجالين المدني والديني اللذين حققهما الملك عبدالعزيز وتميز بهما خلال بداية القرن العشرين. وكذلك على الانطلاقات الجيدة التي تركها في نفوس المسلمين وتقتد. أملياً أن نسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب طالما أغفله بعض المهتمين بدراسة التطور الحضاري الذي بلغته مكة المكرمة في هذه المرحلة التاريخية.

1- انقلاب الأحوال:

واصلت الدولة العثمانية طريقها نحو الضعف والتفكك في القرن التاسع عشر. وقد نجم عن ذلك أن فقد المركز سيطرته على الأقاليم، الأمر الذي نجم عنه لامركزية في الحكم، في الوقت نفسه تطورت الأقاليم الكبرى في الدولة وتحولت إلى ممالك مستقلة. في ظل هذه الظروف نشط حكام مكة المكرمة بصورة أكثر من ذي قبل وانفرد هذا القرن بالصراع بين ظهراني الأشراف أنفسهم⁽²⁾، ويبدو أن ارتباط حكام مكة ومستقبلها بشخص واحد (الشريف) مثل سبيل الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة، لاسيما في الورثة الشرعية، فالوضع الداخلي في الحجاز بنى بالانفجار في هذه المدة، ولابد من الإشارة هنا إلى الانشقاق الذي لحق بيت الإمارة الشريفة في مكة، وهو انشقاق سجليته وثيقة (خاصة الكلام) حيث بلغ ذروته بين الشريفين محمد بن عون (1856-1858م)، وعبدالمطلب (1851-1856 و1879-1881م)⁽³⁾.

غير أن ظهور بعض الحوادث أدى إلى وجود انعكاسات في المجال السياسي الحجازي - ففتح قناة السويس في سنة 1869م اعتبر من قبل أهل الحجاز كارثة حلت بهم، فالرواية القديمة⁽⁴⁾ تفيد بأن فتح مثل هذه القناة سوف يسهل على النصارى السيطرة على بلاد الحجاز⁽⁵⁾، لذا أصبح العثمانيون أكثر سرعة وفاعلية في التدخل في شؤون الحياة السياسية في الحجاز خصوصاً بعد أن تحول البحر الأحمر من بحر إقليمي إلى بحر دولي تتصارع فيه القوى الاستعمارية وتزداد فيه المطامح التوسعية.

هذا، وقد أعطى التغيير المستمر للولاة العثمانيين إلى جانب عدم القدرة على السيطرة على مجريات الأمور، المجال لخروج الأشراف على

تقد من الله سبحانه وتعالى على عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود⁽¹⁾ وأكرمه بمسؤوليته عن البيت الحرام في هذه الفترة التاريخية. وظهر، رحمه الله، انطلاقاً من اقتدائه بهدي الرسول ﷺ، وبسته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عليهم، وجريا على تنافس خلفاء وأمرأ وسلطين ومولوك المسلمين عبر التاريخ على العناية بمدينة مكة المكرمة. فقد أبدى اهتماماً يستوعب الانتباه ببيت الله الحرام. بغية الأجر والثوبة متمثلاً لأمه تعالى (وإذ يوانا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للناظرين والناظرين والركع السجود) (سورة الحج، آية 26).

ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير يدخل موضوع هذا البحث الذي سيتم التركيز فيه على الإسهامات والعطاءات التي تتعلق أساساً بالمجالين المدني والديني اللذين حققهما الملك عبدالعزيز وتميز بهما خلال بداية القرن العشرين. وكذلك على الانطلاقات الجيدة التي تركها في نفوس المسلمين وتقتد. أملياً أن نسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب طالما أغفله بعض المهتمين بدراسة التطور الحضاري الذي بلغته مكة المكرمة في هذه المرحلة التاريخية.

■ **الفئات المجتمعية في مكة تعود إلى العصر الوسيط كانت تتبع للزعامة ممثلة بالأشراف فمصالح المكين كانت مع مصالح الأشراف**

■ **الصورة المشرقة والجذابة للحجاز اعترتها القنامة قبل الملك المؤسس إذ أدى انعدام الأمن وتعرض وفود الحجاج لاعتداءات إلى التأثير سلباً على صورة الحجاج**

■ **كان الأتراك أكثر من عانى من عمليات السلب والنهب والقتل الذريع في تلك الفترة**

■ **كانت العلاقات بين الأتراك والعرب تنقسم في أغلب الأحيان بالتريبص الخفي والحذر الشديد**

(14) رفعت باشا، مرآة الحرمين، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 1، ط 1، 1925، ص 68.
(15) المصدر السابق، ج 2، ص 247، 246، 211.
(16) العلوي، الشاكري، رحلة حجازية، مخطوط بالخزانة العامة (الرباط)، رقم 11509، ص 11/9.
(17) الطيب بن كيران (ت 1314هـ/1896م)، وهو مفيد شيخ الجماعة بفاس الذي حمل نفس الاسم، رحل إلى الحج سنة 1293هـ/1876م، وتوجد الرحلة مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم د. 1482، ص 143.
(18) ابن جبير الأندلسي البليسي، رحلة ابن جبير، بيروت، دار المشرق العربي، د.ت، ص 69.
(19) العبدري، أبو عبدالله محمد الحيحي، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص 201.
(20) رحلة ابن بطوطة، ج 8، ص 413.

(5) هورخرونييه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص 290.
(6) المصدر السابق، ص 297-300.
(7) المصدر نفسه، ص 305، 306.
(8) المصدر نفسه، ص 305، 306.
(9) إبراهيم حركات، المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط، السدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 1998، ص 260.
(10) عبدالعزيز دولتشين. (الرحلة السرية للمضابط الروسي على مكة المكرمة (1898-1899م)، دار التقريب بين المذاهب، بيروت، طت، 1993، ص 115.
(11) المصدر السابق، ص 123.
(12) المصدر نفسه، ص 124-125.
(13) المصدر نفسه، ص 124-125.

(1) انظر ترجمته في: خير الدين الزركلي، «الوجيز في سير الملك عبدالعزيز»، ط 3، بيروت، منشورات دار العلم للملايين، 1977.
● خير الدين الزركلي، «شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز»، ط 3، 1985، بيروت، منشورات دار العلم للملايين، 57/1-59. عبدالله الخثيم، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط 1، 1416هـ منشورات مكتبة العبيكان، الرياض 45/2-47. الملك عبدالعزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية، الوثائق البريطانية (1924-1929م) الرياض، دائرة الدائرة للنشر والتوثيق، 1419هـ/1999، بنو ميشان، عبدالعزيز آل سعود، ترجمة عبدالفتاح ياسين، بيروت 1385/1965. خلاصة (2) أحمد زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز:

(3) دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، ص 75.
(4) تقول الرواية إن هارون الرشيد قد وضع خطته لفتح مثل هذه القناة غير أنه عدل عن هذه الفكرة أخذاً برأي وزيره الكبير (يحيى البرمكي) الذي نصحه بأن فتح مثل هذه القناة سوف يسهل على النصارى الدخول إلى الأماكن المقدسة، فامتثل لكلامه وترك ذلك. هورخرونييه، كريستيان سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة على عودة، محمد محمود السرياني، راجعه محمد إبراهيم، الرياض، ج 1، 1999م، ص 290. أحمد زيني دحلان، ص 54، 55.

(1) انظر ترجمته في: خير الدين الزركلي، «الوجيز في سير الملك عبدالعزيز»، ط 3، بيروت، منشورات دار العلم للملايين، 1977.
● خير الدين الزركلي، «شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز»، ط 3، 1985، بيروت، منشورات دار العلم للملايين، 57/1-59. عبدالله الخثيم، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط 1، 1416هـ منشورات مكتبة العبيكان، الرياض 45/2-47. الملك عبدالعزيز آل سعود، سيرته وفترة حكمه في الوثائق الأجنبية، الوثائق البريطانية (1924-1929م) الرياض، دائرة الدائرة للنشر والتوثيق، 1419هـ/1999، بنو ميشان، عبدالعزيز آل سعود، ترجمة عبدالفتاح ياسين، بيروت 1385/1965. خلاصة (2) أحمد زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز: